قطْبُ الدِّينِ المَسْعوديُّ
إمامُ المُؤرخِينَ
(274 ـ 346هـ)

أعِزَّائي وأَحبَّائي:

قطبُ الدِّينِ المَسْعوديُّ، هيرودتُسُ العَربِ كَمَّا سَمَّاهُ وأَطلقَ عَليهِ عُلماءُ الغَربِ في العَصرِ الحديثِ بعد أَن قرَؤوا كُتُبَهُ، واطَّلَعوا على إِنْتاجِهِ العِلميِّ الغَزيرِ.

قطبُ الدِّينِ المَسْعوديُّ، عَالِمُ التَّارِيخِ والجُغرافيا والفَلَكِ، والرَّحالةُ الَّتي لَمْ تَعرفْ حياتُهُ الهُدوءَ والاستقرار أَو الإِقامَةَ في مَكانٍ مُعينٍ للتَّمتُّعِ بِملاذِّ العَيشِ ونُشدانِ الحياةِ الأُسريَّةِ الهادِئَةِ والمُسْتَقرَّةِ، وإِنَّما كانَ في عملٍ دَؤوبٍ، وسَعي مُتواصِلٍ مِنْ أَجْلِ جَمعِ المادَّةِ العلميَّةِ لِتَسفيرها وجَعلِها في مُتَناوَلِ النَّاسِ، والأَجيالِ التي سَتأتي مِنْ بَعدِهِ، وتَنْتَعِشُ فكرياً وثقافياً بِما يسطرُهُ ويَكتُبُه مِنْ وَحي عَطائِهِ، ومِنْ معينِ معارِفِهِ وثقافَتِهِ المتنوعَةِ الَّتي تُمثِّلُ مَعارِفَ عَصرِهِ وعلومَهُ الَّتي كانَ يَجتَهِدُ في طَلبها العُلماءُ.

كانَ المَسعوديُّ مُثَقَّفَ عَصرِهِ، تماماً كما كانَ هيرودتُسُ اليوَّنانيُّ عِنْدَ أَقرانِهِ الإِغريقِ والرَّومانِ في عَصرِهِ، إِذْ كلاهما حَرَصَ على عَكس الحَالَةِ العلميَّة والثَّقافيَّة والوجدانيَّةِ

والعمرانيَّة لِبَني قَومِهِ، وكلاهما عَكَفَ على القِراءَة والبَحثِ والتَّنقيب عَنِ المعرفَةِ عَلَى بِساطِ الحلِّ والتَّرحالِ والسَّفرِ، ومُكاشَفَةِ الحَقائقِ عَلَى جناحَي الصَّبرِ عَلَى المشاقِّ، وتحمُّل الصِّعابِ وهُما يَضربانِ في طُولِ البِلادِ وعَرضِها، ليَخرُجا مِنْ مِحرابِ هَذا السَّفرِ الطويلِ بِإنتاجٍ علميٍّ مُتَشابِهٍ في مَضمونِهِ وغايَتِهِ، وإِنْ كَانَ عالِمُنا المَسْعوديُّ أَكثرَ واقِعِيَّةً ومَنطقيَّةً وعقلانيَّةً في نِتاجِهِ العِلميِّ من هِيرودوتسَ، وَلِكنْ للإِنْصافِ التَّاريخيِّ كانَ هيرودوتسُ أَسْبَقَ العُلماءِ والمُؤَرخِينَ في هذا المِضْمارِ.

فقَدْ كانَ عالِمَ الإِنسانيَّة الأَوحَدِ في عَصرِهِ، وغَزَا المعرفَةَ في مَشارقِ الأَرض ومغارِبِها، وهُوَ يحرِّرُ قيودَها مِنْ بُعْدِ الشّقَةِ، وشَساعَةِ السَّفرِ، ويَغْتَالُ حُدودَها مِن اختلافِ الطَّبائِعِ والأَمْزِجَةِ والمُعتقداتِ بَيْنَ الشُّعوبِ والأُمَمِ، مُختصِراً المسافاتِ الزَّمانيَّةَ والمَكانيَّةَ بِما يَسطرُهُ ويَخطُّهُ عَلَى صُحفِ النَّهارِ، ورقاعِ اللَّيلِ، مِنْ مَعلوماتٍ جَليلَةٍ، وحقائِقَ مُفيدةٍ، يَصْعُبُ على المَرءِ اسْتجلاؤُها والوصولُ إليها ولو قَضَى عُمرَهُ كُلَّهُ مِنَ المَهدِ إلى اللَّحدِ.

سَبَقَ المَسْعودِيُّ عَصْرَهُ وزَمانَهُ بِما بَذَلَهُ مِنْ جُهدٍ مَتينٍ لِيَصِلَ إِلى عِلمٍ مكينٍ عَن الإِنْسانِ والطَّبيعةِ والأَشياء والحيوانِ، ووَصَفَ الحياةَ بالحياةِ، والعِلمَ بِالعِلمِ، والتَّاريخَ بالتَّاريخِ، فكانَ بحقٍّ أُسطورَةَ التَّاريخِ العربي والإسلامي، كما كان هيرودوتس أسطورة التاريخ اليُونانيِّ والرُّومانِيِّ مِنْ قَبْل.

فَمَنْ هُوَ قِطبُ الدِّينِ المَسعوديُّ، الّذي لَقَّبَهُ عُلماءُ الغَربِ ومُفكروهُ بِهيرودوتْسَ العَربِ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ أَبو الحُسَينِ (وقِيلَ أَبو الحَسَنِ) عَليُّ بْنُ الحُسينِ المُعتزلي الشَّافِعي، وحَسَبَ ما رَوى ابْنُ حَزمٍ عَنْهُ، أَنَّهُ وُلِدَ في بَغدادَ عامَ (274) هِجريَّةً، لِأُسرَةٍ كوفيَّةٍ تَعودُ في نَسَبِها إِلى الصَّحابيِّ الجليلِ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ، ولِهَذا يُلقَّبُ بِالمَسْعوديِّ. نَشَأَ قِطبُ الدِّينِ المَسعوديُّ في مَدينةِ بَغدادَ وتَرعرَعَ فيها، ومنذُ صِغَرِهِ كانَ مَيَّالاً إِلى سَماعِ الحكاياتِ والقِصصِ عَنِ الشُّعوب الماضِيَةِ، ويُحبُّ الاسْتِفسارَ عَنِ البُلدان والأَصْقاعِ، ولِهَذا اهْتَمَّ في شَبابِهِ بِقراءَةِ الكُتُبِ التَّاريخيَّةِ ودراسَتِها دِراسَةً عميقةً ودقيقَةً، كما التَقَى بكوكَبَةٍ مِنَ العُلماءِ والمُؤَرخين المعَروفين ودرسَ عليهم، كالإمامِ الطَّبَريِّ، وابْنِ دُريد، كمَا رُويَ عَنْهُ أَنَّهُ التَقَى في بَغدادَ مَع العَالِمِ الكَبيرِ أَبي بَكرٍ الرَّازِيِّ، ودَارَتْ بَينَهُما مُساجلاتٌ ومُناظراتٌ علميَّةٌ في بَعضِ المَسائِلِ العِلميَّةِ والتَّاريخيَّةِ، ثُمَّ تَمَكَّنَ قِطبُ الدِّينِ المَسْعوديُّ مِنْ تَحصيلِ ثَقَافةٍ مَعرفيَّةٍ عميقةٍ وشاسعةٍ جَعلتْهُ مُلمّاً بِعلومِ عَصرِهِ، ومُتَفوِّقاً في عُلومِ التَّاريخِ والفَلكِ والجُغرافيا.

اهْتَمَّ المَسعودِيُّ بِطَلبِ الرِّحلَةِ والسَّعي في البُلدان والأَصقاعِ، فَلَمْ يَلبَثْ في مَدينَتِهِ ومَسْقَطِ رَأسِهِ بَغدادَ بَعْدَ نُضوجِهِ الفِكريِّ إِلَّا قليلاً، وهَذا ما يُعلِّلُ لَنا تَغَيُّبَهُ عَنِ الحضورِ في مُصنَّفاتِ وتَراجِمِ العُلماءِ والمُؤَرخينَ الّذينَ كانوا في عَصرِهِ في مَدينةِ بَغدادَ مِمَّن اشْتَغَلَ مِنْهُمْ بِتَدوينِ أَخبارِ ذَلِكَ العَصرِ، فَتَقَلُّبُهُ المُسْتَمرُّ في البُلدانِ، وغُربَتُهُ الدَّائِمةُ في الأَصْقاعِ غَيباهُ عَنْ أَعْيُنِهِمْ.

زارَ قِطْبُ الدِّينِ المَسْعوديُّ الكَثيرَ مِنَ البُلدانِ الآسيويَّةِ والإفريقيَّةِ، ورُبَّما بَعْضَ أَقطار القَارَّةِ الأُوروبيَّةِ في سياقِ أَسفارِهِ المُستمرَّةِ الّتي امتَدَّتْ بينَ السِّنين (303 ـ 336) هجريَّةً.

فَقَدْ جَابَ بِلادَ فارِس، والشَّام وفلسطينَ وبِلادَ الهِنْدِ والسِّندِ، وطافَ في أَرجاءِ أَرمينيَّةَ وضَواحي بلادِ القاب وبَحر الصِّين ومَدَغَشقرَ والسَّاحِلِ الشَّرقي لإِفْريقيةَ وبَعضِ بِلادِ الرُّوم، ولَكنْ بَقيَ ردْحاً طويلاً مِنْ حياتِهِ يَتَردَّدُ بين مصر وبِلادِ الشَّام، حَتَّى استقرَّ مقامُهُ أخيراً في فسطاطِ مِصْرَ، فبقيَ مُقيماً فيها حَتَّى وفاتِهِ سَنَةَ (346) هجريَّةً.

❁ ❁ ❁

وَصَفَ المَسْعوديُّ مُشاهَداتِهِ المُختلفَةَ في البُلدانِ التي زارَها وطَافَ بِها بِأسلوبٍ عِلميٍّ رَصينٍ ومُنمَّقٍ وبِتَراكيبَ لُغويَّةٍ مُترابِطَةٍ جَزلَةٍ، فَوَصَفَ البِحارَ الّتي زارَها وأَنواءها وسواحِلَها ومُدنها، والأَنْهارَ الَّتي مَرَّ بِها أَو عبرَها ومنابِعَها ومصابَّاتها، وجرَيانها في البُلدانِ والوديانِ، وكذلِكَ الجبالَ والأشجارَ والحَيواناتِ، والمُدنَ والقُرى الّتي زارَها وشاهَدَها واصِفاً سُكَّانَها وعاداتِ أهلِها، وتاريخَ نُشوئِها وموقعَها وحُدودها وأعيادَها ومواسِمَها وصِفاتِ المنَاخِ فيها، وكُلَّ ما يتعلَّقُ بِحياتِها الاقتصاديةِ والاجتماعيَّةِ والسِّياسيَّةِ والدِّينيَّةِ. ولا يَخلو وصْفُه مِنَ المقارَناتِ والتَّحليلاتِ، وتَحديدِ المَسافاتِ بِالأَميالِ والفَراسِخِ والأَيَّامِ.

كَمَّا تحدَّثَ في مُصنَّفاتِهِ عَنْ تاريخِ بِدءِ الخليقَةِ وبدايَةِ حياةِ الإنسانِ على ظَهرِ هَذِهِ الأرضِ، ثُمَّ العُصورِ والحِقَبِ الّتي تَلَتْ ذَلِكَ حَتَّى عَصرِهِ الّذي عَاشَ فيه، وكيفَ ارتَقَتْ وتطورَتْ حياة الإنسانِ والكائناتِ وكيفَ ازدَهَتْ مَعارفُ البَشريَّةِ وثَقافاتُها وحَضاراتُها، بَلْ إِنَّهُ أَشارَ إِلى أَبْعَدِ مِنْ ذَلِك فوصَفَ التَّبدلاتِ البيولوجيَّةَ الّتي تَطرأُ على بَعضِ الكائناتِ

الحيَّةِ إذا تَمَّ نَقلُها مِنْ مَكانِها إلى مكانٍ آخرَ. فمثلاً أَشارَ إلى الانحرافِ الوراثيِّ في الحِمضيَّاتِ، أَثناءَ عمليَّةِ النَّقلِ لَهَا مِنْ بِلادِ السِّندِ إلى بِلادِ الهِنْدِ، ولِهَذا اعتبَرهُ البَعضُ رَائِدَ نَظريَّةِ الانْحرافِ الوراثيِّ في تاريخِ الإِنْسانيَّةِ، فَهوَ أَوَّلُ مَنْ أَشارَ إلى ذلِكَ، بَل اعْتَبرهُ بَعضُ الباحثينَ الأُوربيين بَعدَ اطلاعِهِ على نِتاجِهِ العِلميِّ بِأنَّه ـ وإِنْ كُنَّا نُخالِفُهُ الرَّأيَ في صِحَّة هَذِهِ النَّظريَّةِ ـ واضِعُ بُذورِ نِظريَّةِ الارتقْاءِ والتَّطورِ الّتي نَادَى بِها دارونُ في العَصرِ الحَديثِ.

❋ ❋ ❋

أَفادَ قِطْبُ الدِّين المَسعوديُّ الفِكْرَ الإِنْسانيَّ، والتَّاريخ البَشَريَّ كثيراً بِما وَضَعَهُ مِنْ مُؤَلفَاتٍ ومُصَنَّفاتٍ، وبِمَا قَدَّمَهُ مِنْ مَعلوماتٍ وحقائقَ عَن البُلدانِ الّتي زارَها ووَصَفَها.

وَلِكنَّه لَمْ يَلْقَ بِما تَرجَمَهُ عَنْهُ وعَنْ حياتِهِ المُترَجمونَ والمُؤَرخونَ الحَفَاوَة الّتي تُناسِبُ قَدْرَهُ وجهدَهُ العلمِيَّ، وعطاءَهُ البَاهِرَ الّذي تضيقُ عَنْ وَصْفِهِ الصَّفحاتُ الطِّوالُ، فَمثلاً نَجدُ «صلاحَ الدِّينِ الصَّفديَّ» في كتابِهِ «الوَافي بِالوَفيات» لا يَذْكُرُ «المَسْعوديَّ» عِندما يُتَرجِمُ عَنْ حياتِهِ إلا صَفْحةً ونِصْفَ الصَّفحةِ فَقَطْ. وكَذَلِكَ فَعلَ ابْنُ شَاكِرِ الكتبيُّ في «فَواتِ الوَفيات»، وياقوتُ الحمويُّ في «مُعجمِ الأُدباء»، أَما ابنُ خلكانَ في «وفياتِ الأَعيانِ» فَلا نَجِدُ في كتابِهِ هذا أَيَّ ترجَمةٍ لحياةِ «المَسْعوديِّ» عِلماً بأَنَّهُ قَد اعتمدَ عَلى أَقوالِهِ وآرائِهِ اعْتِماداً كَثيراً في كِتابِهِ المَذكورِ.

لِهَذا قَالَ أَحَدُ المستشرقينَ الَّذينَ قَرؤوا المَسْعوديَّ: «لَمْ يَقْرأ العَربُ والأُوربيون المَسْعوديَّ فيما كَتَبَهُ حَتَّى الآنَ».

أَمَّا المُسْتَشرقُ «فُونَ كِريمَر» فَقَالَ عَن المسعودي: «هيرودوتسُ العَربِ»، ومَعَنى ذَلِكَ أَنَّهُ «أَبو التَّارِيخِ العربي»، كما اعتُبِرَ المُؤَرخُ اليونانيُّ القديمُ هيرودوتسُ أَبو التَّاريخِ القديمِ.

أَما العَلَّامَةُ «ابْنُ خلدونَ» فَقَدْ لَقَّبَ المَسعوديَّ بِـ «إِمامِ التَّاريخِ» مُعتبراً أَنَّهُ كان يُحقِّقُ في التَّاريخِ عَلى الأسفارِ القَديمةِ في وَصْفِ بِدايَةِ الخَليقَةِ ونَشْأَةِ الكَونِ.

فَالمَسْعوديُّ كَانَ يُسجِّلُ ويُدوِّنُ مِنَ الأَحداث والوقَائِعِ ما يراهُ هاماً، ويَبعدُ عَن الخيالِ فيما يَصِفُهُ مِنْ مُشاهَداتِهِ الكثيرةِ خِلالَ رِحلاتِهِ إِلى البلادِ الّتي زارَها، ولِهذا كانَتْ أَخبارُهُ تنبضُ بِالحياة وتَتَّصِفُ بِالواقِعيَّة، وقَدْ كانَ المُؤَرخونَ قبلَهُ يعْتَمدونَ على الرِّوايات المَنْقولَةِ بِقَولِهِمْ: حَدَّثنا فُلانٌ عَنْ فُلانٍ.

أَمَّا المَسْعُوديُّ فَقَدْ أَبْدَعَ مَنْهجاً جَديداً في كتابَةِ التَّاريخِ مَيَّزَه عَنْ غَيرِهِ مِنَ المُؤَرخينَ الَّذين كانوا يعتمدون عَلَى الأَخبارِ كيفَما كانَتْ.

❁ ❁ ❁

لَقَدْ كانَ المَسْعوديُّ عَلَى قَدْرٍ عظيمٍ مِنَ الأَخلاقِ الحَسَنةِ الّتي أَثَّرتْ في كِتاباتِهِ، وأَبْعَدَتْهُ كثيراً عن العقَدِ النَّفسيَّةِ والأَهواءِ فيما يَكتُبُه أَو يرويهِ مِنْ أَخبارٍ، إِذْ لا تَخلو أَخبارُ المُؤَرِّخِ مِنْ هَفْواتِ أَهوائِهِ ورَغباتِهِ فيما يَأْمَلُ ويُحبُّ ويَكرَهُ ويَعْتَقِدُ.

أَمَّا المسعوديُّ فَكانَ حياديّاً فيما يَكتبُ ويَصِفُ، أو فيما يرويه مِنْ أَخبارٍ، ولَمْ يَكُنْ مُتعصِّباً لأُمَّةٍ دونَ أُخْرى، أو لِمَذهبٍ دُونَ آخَرَ، وإِنَّما كَانَ ينقُلُ الخَبَر نقلاً أَميناً دَقيقاً مُتَوخّياً الحقيقةَ قَبْلَ أَيِّ شيءٍ آخَرَ.

وأَجْمَلُ ما كَانَ يتحلَّى بِهِ المَسْعوديُّ مِنْ خُلقٍ فَاضلٍ هُوَ التَّواضُعُ والحَنينُ إِلى الوَطنِ الّذي خَرَجَ فيْهُ مُرتَحلاً إِلى آفاقِ الدُّنيا والبلدان، فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ أَصْبَح شَخصيَّةً عالميَّةً، فَلَمْ يَكُنْ لِيَنْسَى وَطَنَهُ ومَسْقَط رأْسِهِ، فَنُلاحِظُ فيهِ رَجلاً وَطنياً صادقاً ومُخلصاً، فَقَالَ في كتابِهِ «مُروجِ الذَّهبِ»: «إِنَّ مِنْ عَلامَةِ وَفاءِ المَرءِ، ودَوامِ عَهدِهِ، حَنِينَهُ إِلى إِخْوانِهِ، وشَوقَهُ إِلى أَوطانِهِ، وبُكاءَهُ عَلَى ما قَضَى مِنْ زمانِهِ».

صنَّفَ وأَلَّفَ المسعوديُّ كُتُباً كثيرةً في التَّاريخِ والجُغرافيا، وذَكَرَ لَهُ المُؤَرخونَ أَكثرَ مِنْ أَربعينَ كتاباً. وأَهَمُّ مؤلفاتِهِ:

1 ـ مُروجُ الذَّهبِ وَمعادِنُ الجَوهَرِ: وهو مُخْتَصَرٌ لِكتابٍ لَهُ مَفقودٍ بِاسمِ «أَخبارِ الزَّمانِ» وهُوَ مَوْسوعَةٌ علميَّةٌ جُغرافيَّةٌ تاريخيَّةٌ، وقَدْ تُرجِمَ هَذا الكِتابُ إِلَى اللُّغاتِ الفَرنسيَّةِ والإِنْكليزيَّةِ والفَارسيَّةِ والهِنديَّةِ.

2 ـ التَّنبيهُ والأَشرافُ: وهُوَ في مواضيعَ كثيرةٍ تَحدَّثَ فيه عَنِ الأَفلاكِ وهيئَتِها، والنُّجومِ والعناصِرِ وتَركيبِها وَأَقسامِ الأَزمنَةِ، وفصولِ السَّنَةِ وَمنازِلِها، والرِّياحِ ومَهابِّها، والأَرضِ وشَكلِها، ومَعرفَةِ السِّنين القَمريَّةِ والشَّمسيَّةِ، وبَعضِ المواضيعِ التَّاريخيَّةِ، وقَدْ تُرجِمَ هَذا الكِتابُ إِلى عِدَّةِ لُغاتٍ عالميَّةٍ مُؤَخَّراً.

3 ـ سِرُّ الحَياةِ: وهُوَ كِتابٌ علميٌّ يَتحدَّثُ فيهِ عَنْ أَسرارِ الطَّبيعةِ والحَواسِّ الموجودَةِ في الإِنسانِ والمبادِئِ والتَّركيبِ.

ومِنْ خلالِ هَذِه الكُتبِ الثَّلاثَةِ اعْتَبَرَ البَاحثونَ والنُّقادُ المَسعودِيَّ مُمَثِّلاً لِثقافَةِ ومعارِف عَصرِهِ، فَلَقدْ كَانَ يَتنَاوَلُ في كِتاباتِهِ جُملةَ مواضيع تَتطابَقُ اليومَ مَعَ ما يُعرفُ بتاريخِ الحضاراتِ.

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ ما هِيَ نِقاطُ التَّشابُهِ بين هيرودتُس والمَسْعوديِّ؟

2 ـ كيفَ سبقَ المَسْعوديُّ عَصرَهُ وزمَانَهُ؟

3 ـ أين وُلِدَ المَسْعوديُّ، ولِماذا لُقِّبَ بِالمَسْعوديِّ؟

4 ـ ما هِيَ البُلْدانُ التِّي زارَها المَسْعوديُّ؟

5 ـ كيفَ وصَفَ المَسْعوديُّ مُشاهداتِهِ في البُلدانِ الّتي زارَها؟

6 ـ لِماذا اعْتُبِرَ المَسْعوديُّ رائِداً لِنَظَرِيَّةِ الانحرافِ الوراثيِّ؟

7 ـ لِماذا كانَتْ أَخبارُ المسعوديِّ تَنْبضُ بالحياة وتتَّصِف بِالواقعيَّةِ؟

8 ـ ما أَجْمَلُ ما كانَ يَتَحلَّى بِهِ المَسْعوديُّ؟